الدرس الثامن عشر/ تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

الشيخ -حفظه الله-: إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فهناك أربعة مذاهب حول فائدة العبادة والحكمة منها، وتعرضنا في الدرس الماضي للمذهب الأول، وهو أردأها وأسوأها، وهو قائم على أصل عقديٍّ ساقط، أي آثم، وهو أن الإنسان مجبور، وليس له إرادة، وبناء عليه؛ فأصحاب هذا المذهب قالوا: إنه لا فائدة من العبادة، ولا حكمة لها، وإنما تُفعَلُ لأن الله -جل في علاه- أرادها، ونحن نمتثل، وهم لا يفرقون بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، وهذا من أبطل الباطل، وفصَّلنا هذه الجزئية تفصيلا فيما مضى.

وبيَّنَّا أوجه الفرق بينهما، ما يَنبني على باطل باطل، والأصول العقدية تظهر عوارها وفسادها في أشياء كثيرة، وهذا الظهور قد يكون باللازم الذي لا ينفك؛ لأن لازم المذهب الذي يقبل الانفكاك عند أهل العلم ليس بمذهب.

الصنف الثاني على عكس الصنف الأول، وهو موضوع درسنا اليوم، يقولون: ليس لله -عز وجل- إرادة في أفعالنا، ونحن الذين نخلق أفعالنا، وهو أيضا قائم على أصل عقدي فاسد، لا يقول: {والله خلقكم وما تعملون}، فأعمالنا، من الذي يخلقها؟ الله، هل لنا إرادة فيها؟ لنا إرادة فيها؛ لذا أهل السنة كان قولهم وسطا بين القولين؛ أخذوا الحق من المذهب الأول، والحق من المذهب الثاني، وداروا مع النصوص الشرعية ففيها الحق، وخلَّصوا الحق من بين فرث ودم لبنًا خالصا سائغا للشاربين.

هنالك مذهبان آخران، أوجزُ بشدة فيهما الآن؛ لآتي بإذن الله تعالى في الدرس القادم أو الدرس الذي بعده على حسب ما ييسر الله -عز وجل- لنا.

هناك مذهب يقول: نحن نفعل العبادة محبة لله، لا نبالي بالثواب، ولا نبالي بالعقاب، لا نبالي بأن الله يرضى، الله -عز وجل- يعطينا حسنات، لا نريد الجنة، ولا نعبد الله خوفًا وطمعًا، كما قال الله عز وجل، وإنما نريد محبته، ولا نطمع في جنته. وهؤلاء لا يعرفون الرجاء ولا الخوف في عباداتهم لله -عز وجل-، وقالوا: إنما نفعل العبادة من أجل رياضة النفس، وتوقيفها على الامتثال لأمر الله -سبحانه وتعالى-، بل بعض هؤلاء زعموا أن العبادة تُفعَل للترويض، وزعموا أن النبوة مكتسبة، فمن الممكن أن تعبد الله وتصير نبيًّا!

بعضهم زعم أن بعض الأولياء بسبب مجاهدتهم وترويضهم لأنفسهم خير من الأنبياء، ولذا ينقلون عن بعض أئمتهم قالوا: (خضنا بحارًا وقفت الأنبياء في ساحلها، عرفنا الله أكثر مما عرفه الأنبياء)!! نسأل الله -عز وجل- العفو والعافية.

وبعضهم يُفضِّل الولي على النبي، وبعضهم يستدل بقصة الخضر وموسى، يقول: الخضر ولي وموسى -عليه السلام- نبي، وكان موسى تلميذا عند الخضر، بالقصة المذكورة في سورة الكهف، لذا قال أهل السنة ما قاله ابن المنادي، قال: «القول بنبوة الخضر تحل عقدة من الزندقة»، تأمل سورة الكهف تجد أن الخضر نبي، وله شريعة، ولموسى شريعة، والله -عز وجل- لما أرسل الرسل فهم متفقون في الأخبار عن الله -عز وجل-، ولذا نحن نثبت لله -جل في علاه- كل خبر وصلنا عن أي نبي من أنبياء الله، أما الأوامر والنواهي فنحن متبعون محمدًا -صلى الله عليه وسلم- دون سواه، والذي أنزله الله على غيره حق، لكنه حق لأقوامهم، وشريعتنا جاءتنا ناسخة للشرائع التي

قبلها، فإياك ثم إياك أن تعتقد أن الخضر ليس نبيًّا، إن اعتقدت هذا فستجرُّ إلى أقوال فاسدة كثيرة.

بقيَ المذهب الرابع، فهو الذي نعبد الله تعالى به، وسنأتي لتفصيله، وأننا نعبد ربنا محبةً فيه، وخوفًا منه، ورجاءً لجنته -سبحانه وتعالى-، ونفعل أوامره امتثالا لأمره، وطمعا في رضاه، ونترك نواهيه خوفًا من عقابه، واجتنابًا لنهيه، -سبحانه وتعالى-.

هذا القول على نقيض القول السابق؛ فالقول السابق: أن الله هو الآمر، ونحن نمتثل الأمر، والحسن والقبح سمعي جاء وفق ما جاء في السمع، وفق ما جاء في النقل، والعقل ليس له دور في التحسين والتقبيح، فالله هو الآمر فقد يثيب الكافر، وقد يرسل نبيًّا دَعِيًّا، وقد يعذب المؤمن، فالأمر خالص لله، والعقل ليس له دور في ذلك.

هذا المذهب الذي معنا قال بنقيض ذاك المذهب، فقد قالوا: نحن الذين نخلق أفعالنا، والله ليس له صلة بأفعالنا، وهو مذهب المعتزلة، ويردد بعض آثاره بعض الناس، والحسن والقبح عند هؤلاء ليس من السمع، وإنما هو من العقل، وهم يوجبون على الله أن يثيب بالطاعة، وأن يعذب العاصي، وهذه قلة أدب منهم مع الله -عز وجل-، ويوجبون على الله أن يفعل الأصلح، ويقولون -على هذا المذهب-: إن الله -جل في علاه- إنما يدخل الجنة ندخل الجنة بأعمالنا، وأن القول بدخولناالجنة بالمنة والفضل تكدير للنعمة، ونحن ندخل الجنة بأعمالنا، ودخول الجنة بالفضل والمنة له حاجب دقيق يحتاج لتفرقة، وقد أتى عليه مؤلف الكتاب هذا، لما عرض مذهبهم ذكر هذه المسألة، ثم بعد قليل كرَّ عليها وناقشها، ووضحها على وجه يحتاج إلى شرح وبيان، وهذا الذي سنفعله إن شاء الله تعالى في قراءتنا للصنف الثاني، فهذا تمهيد، ثم نشرح ونفهم فقرة فقرة.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله تعالى–: «الصنف الثاني: القدريّة النّفاة، الذين يثبتون نوعا من الحكمة، والتّعليل لا يقوم بالرّب ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنّعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره».

الشيخ –حفظه الله–: القدرية النفاة أي نفاة قدر الله، ونحن الذين نخلق أفعالنا، ولا صلة لله –عز وجل– بأفعالنا، ولذا كان من سمات أهل السنة خلق أفعال العباد، وأن نعتقد أن أفعل العبادِ اللهُ هو الذي خلقها، وقد ألف الإمام البخاري كتابًا مطبوعًا سماه: (خلق أفعال العباد)، الله الذي خلق أفعال العباد، وهو الله أوجزها في سورة الصافات: {والله خلقكم وما تعملون}.

وهؤلاء الذين سماهم النبي –صلى الله عليه وسلم– أو ابن عباس، وذكرنا هذا سابقا وحررناه، القدرية مجوس هذه الأمة، فالمجوس يؤمنون بإلهين إله خير وإله شر، والقدرية يثبتون أننا نخلق، فكأنهم يثبتون بذلك إلهين، لأن الذي يخلق هو الله فقط، ولذا سموا: (مجوس هذه الأمة) بالآثار، ورجحنا أن هذا قول ابن عباس، وليس حديثا للنبي –صلى الله عليه وسلم–، من حيث الصنعة الحديثية، وأومأنا لهذا وفصلنا فيه فيما مضى.

قال: القدرية النفاة، هؤلاء نفاة لا يثبتون أن الله خالقا، وإنما المكلف هو الذي يخلق أفعاله، لذا سموا نفاة.

قال: الذين يثبتون نوعا من الحكمة والتعليل، هؤلاء يثبتون حكمة مرادة ومحبوبة إلى الله –عز وجل–، ولكن هذه الحكمة تعود إلى العباد ومصالحهم، يعتقدون أن الإثابة على الطاعات فعل واجب على الله –عز وجل–، وليست تفضلا منه، وإنما القضية قضية معاوضة ومثامنة، والله يجزيك بمقدار ما فعلت فقط، لا يثبتون التفضل من الله –عز وجل– على عباده، فأمر الله –عز

وجل- وإثابة العبد عليه أنما هو جزاء وفاقا، وليس هو فضل من الله -سبحانه وتعالى-، والله يجازيك كما يجازي الأجير الذي يعمل عنده فقط، ولذا الأعمال هي ثمن الجنة، انتبه! هذا الآن الذي سيناقشه المصنف وسيذكر نصوصا لو أنها عرضت عليك، لعلك ارتبكت، ولعلك ما انتبهت للجواب، ولا يحسن الجواب إلا من يعرف هذه الأصول، مثلا أعطيك الآن زبدة ما قال، وتبقى هذه المسألة في بالك حتى نصل إلى نتيجة.

الله -عز وجل- يقول: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فدخول الجنة بأيش؟ بأعمالهم، والنبي —صلى الله عليه وسلم- يقول: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، كيف نوفق بين الأمرين، فالظاهر متعارض؟

الله يقول لكم: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، هذه الباء هي الفيصل في التنبيه {بما} الباء في قوله: {بما كنتم تعملون}، «ولن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، العرب تذكر الحرف الواحد وله عدة معانٍ، فالباء هنا غير الباء هناك، ولذا لا تعارض، لكن ما هو مذهب هؤلاء القدرية؟ الجنة عندهم معاوضة، العمل معاوضة لدخول الجنة، العمل ثمن الجنة، أما عند أهل السنة العمل سبب لدخول الجنة، وفرق بين القولين، وسيأتي التنبيه على ذلك.

قال: (الذين يثبتون نوعا من الحكمة والتعليل لا يقوم بالرب ولا يرجع إليه، إنما الحكمة والتعليل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته)، فالمخلوق هو الذي يخلق أفعاله، وخلقه لأفعاله بإرادة ومشيئة مستقلة عن إرادة الله ومشيئته.

نحن نثبت أن للإنسان إرادة، ولكن إرادة الله الغالبة، وإرادة الإنسان ليست إرادة مستقلة، وإنما هي إرادة، وإرادة الله فوقها، والذي شاءه الله -عز وجل- لابد أن يكون.

ثم قال: (فعندهم أن العبادات شرعت أثمانا)، أهل السنة يقولون: (العبادات شرعت أسبابًا)، وفرق بين الثمن وبين السبب.

قال: فعندهم أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره، فليس لله فضل على أحد، وإنما الله يدخلنا الجنة جزاء أعمالنا، وليس لأن الله جل في علاه هو الذي تفضل علينا!!

وهذه جرأة عظيمة منهم في حق الله عز وجل، وقلة أدب مع الله سبحانه.

نبدأ التوضيح شيئا فشيئا، أنت تذهب إلى منتزه، ويظهر هذا في ما يسمى حدائق الحيوانات، والمنتزهات، ولا تدخل المنتزه إلا بتذكرة، صحيح؟ لما تدخل المنتزه أو حديقة حيوان تدخل بتذكرة، التذكرة التي أعطيتها، هي سبب لدخولك، أم هي ثمن للمنتزه؟ يعني لما تأخذ التذكرة تدخل تقول هذه لي، وتطرد الموجودين وتفعل ما شئت في الحديقة، إذا كان الأمر كذلك، فهذا ثمن، وأما إذا كانت التذكرة فقط هي سبب للدخول وليس لك أن تملك شيئًا فيها، وليس لك أن تطرد أحدا فيها، ولا أن تغير، ولا أن تبدل، الآن هذه التذكرة لما تدخل الحديقة سبب أم ثمن؟ سبب وليست ثمنا؛ لذلك أهل العلم يقولون: الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، لكن هي ليست ثمنا للجنة، ومنهم من قال أن الأعمال سبب دخول الجنة، وسبب على حسب منزلتك بالجنة، الجنة الناس فيها على منازل، أنت تدخل بفضل الله ورحمته، ومنزلتك في الجنة على حسب عملك، وإنما دخولك الجنة إنما هو فضل من الله ورحمة، وهذا الذي قاله النبي –صلى الله عليه وسلم–، وسيأتي بعد قليل.

الآن المصنف بدأ يعرض مذهبه، ثم كر عليه، وبين بطلانه بالأدلة الشرعية الصحيحة:

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: «قالوا: ولهذا يجعلها سبحانه وتعالى عوضًا، كقوله: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وفي الصحيح: "إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثمّ أوفيكم إيّاها". قالوا: وقد سماها جزاءً وأجرًا وثوابا لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه».

الشيخ -حفظه الله-: قالوا: إذا دخول الجنة بالأعمال وهي عوض وثمن، فالأعمال من الإنسان بمشيئة مستقلة، ويجب على الله أن يدخلنا الجنة، ودخولنا الجنة من جزاء أعمالنا، وليس منة وفضلا من الله تعالى؛ قالوا: كقوله {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وفي الصحيح: "إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثمّ أوفيكم إيّاها"، قالوا: وقد سماها جزاء وأجرا وثوابا، لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله أي يرجع إليه، فقالوا: دخول الجنة بالأعمال فهي عوض، هي ثمن.

أهل السنة يقولون: لا، الباء سببية، وليست معاوضة، ودخولنا الجنة إنما هو فضل من الله ورحمة، فدخول الجنة كما ورد في الأحاديث الصحيحة الصريحة إنما هو بفضل من الله -عز وجل- ورحمة، والسبب عمل، والله جل في علاه يضاعف الأعمال، فالله من أسمائه الشكور، تفعل القليل والله يجزيك الكثير، هذا هو معنى الشكور، عملُك قليل والله يجزيك الكثير.

أما على قول القدرية بالمعاوضة، فإذا عاش مئة سنة، يدخل الجنة مئة سنة، ما دام أنه معاوضة، أما عندنا أهل السنة، فإن الذي يعمل ويصدق الله -عز وجل- ولو في أواخر حياته، فالله يخلده في الجنة، فخلودنا في الجنة هو فضل من الله ورحمة، وليست مقابل معاوضة، لو كان الأمر

معاوضة لتنعمنا في الجنة بمقدار ما عملنا، لكن، فما بعدها؟ لابد أن نقول: أن دخولنا الجنة إنما هو فضل من الله، والله –جل في علاه– من فضله وكرمه ومنته ورحمته أنه يضاعف الأعمال، فمضاعفته –عز وجل– يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، كما ورد في النصوص.

فالقول بأن أعمالنا ثمن الجنة قول باطل.

وبعد أن ذكر الآيات، ذكر الحديث الذي في صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري –رضي الله تعالى عنه– قال: قال –صلى الله عليه وسلم– في الحديث القدسي عن الله عز وجل «إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها»، قالوا: أوفيكم إياها على أنها عوض! والأمر ليس كذلك، وقد سماها جزاء وأجرًا وثوابًا؛ لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، فعل يثوب مرده إلى الرجوع، كما قال الله –عز وجل–: {إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ}، كلما زاروا البيت رجعوا إليه، فمعنى مثابة للناس، أن الناس يزورون البيت ولكن كلما فرغوا من زيارة البيت يرجعون إلى زيارته مرة أخرى، ولذا كان الذهاب لبيت الله –عز وجل– مثوبة.

ما زال يعرض المصنف حجج القدرية النفاة، وبعد هذا العرض يأتي ويكر عليه ببيان البطلان والفساد، نعم.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: «قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى، وهاتان الطائفتان متقابلتان:

فالجبريّة: لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء البتّة، وجوّزت أن يعذّب الله من أفنى عمره في الطّاعة، وينعّم من أفنى عمره في مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلى محض المشيئة.

والقدرية: أوجبت عليه سبحانه وتعالى رعاية المصالح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منّة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضّله سبحانه وتعالى على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، وإعطائه ما يعطيه أجرةً على عمله، أحبّ إلى العبد من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البتّة.

والطائفتان منحرفتان عن الصّراط المستقيم، وهو: أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب، والأعمال الصّالحات من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه وتعالى، فلو عذّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالمٍ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم».

الشيخ –حفظه الله–: ما المراد بالطائفتين؟ أصحاب القول الأول، وأصحاب القول الثاني، قال قبلها القدرية المعتزلة، المعتزلة قالوا: أننا نخلق أفعالنا، والله جل في علاه الواجب عليه وجوبا، أن يفعل الأصلح –سبحانه وتعالى–، ويراعي في عمله مصالح الخلق، وجعلوا مآل الإنسان في الجنة والنار إنما هو بفضل الأعمال راجعة إلى الأعمال، لا إلى فضل الله –سبحانه وتعالى–، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله، فيه تنقيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن!!

قالوا: إذا الله جل في علاه أدخلنا الجنة ليس برحمة منه وليس من أعمالنا، فهذه منة والمنة لا تصلح!!

والله لو أن الولد قال لأبيه، والعبد قال لسيده: أن تربيني وتعطيني، وتطعمني وتسقيني وتكسوني، لأنه واجب عليك، ليس منة منك أيها الأب، أو منة منك أيها السيد! لكان هذا قلة أدب فقاسوا الخالق على المخلوق، وأوجبوا الحر مع الحر، ليس الخالق على المخلوق، الحر مع نظيره، ليس الحر مع العبد، ولا الوالد مع الولد، قاسوا الله على المخلوق، فقال: هذا العمل منه ويطالب فيقول: تعطيني!! الواجب عليك يا رب تدخلني الجنة!!

أعوذ بالله، الله يعلم السر وأخفى، والله يعلم النفوس، ومن زكى نفسه، ومن دساها، والله يحاسب ما في القلوب على ما في النوايا، والله يحاسب ببواطن الأمور لا بظواهرها، لذا المطيع إن عبد الله سبعين سنة أو مئة سنة، الله يخلده في الجنة، لماذا يخلده في الجنة؟ لأن الله يعلم من قلبه أنه لو خُلِّد على الأرض لبقي على صلاحه، ولذا الله يعامله بنيته، والأعمال القلبية في الشريعة أوسع من الأعمال البدنية، فرب شهيد يموت في المعركة وهو في النار، ورب إنسان يموت على فراشه ويحشر مع الشهداء.

فالله ليس كالعباد، فالله يعامل الناس حسب بواطنهم، وعلى حسب نواياهم، لذا قالوا حديث: «إنما أعماله بالنيات» دخل في كل باب من أبواب الشريعة، وكل باب من أبواب الشريعة في قوله –صلى الله عليه وسلم– «إنما الأعمال بالنيات» له فيه نصيب.

فهم يقيسون الخالق على المخلوق، يقولون: عملت لك كذا، كالمستأجر معي الأجير، أنا فعلت العمل يجب أن تعطيني الأجر، لا! ممكن واحد يعمل عملا شديدا ثم في الحديث: «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة»، هناك رواية في صحيح مسلم مرعبة ومزلزلة خطيرة جدا، ويحتاج بسبب هذه الرواية كل واحد من المستمعين أن يراجع نفسه في كل عمل، في كل جزئية من جزئيات الأعمال، وأن ينوي النية الصادقة الخالصة لله –عز وجل–، «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل

الجنة» زاد مسلم في الحديث قال: «فيما يظهر للناس»، هو يعمل بعمل أهل الجنة فيما ظهر لك، «ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، فمعاملة المخلوق مع الخالق جزاء وفاقا، وأنا أعمل وأنت لازم تعطيني جنة، وأنا عملي ثمن الجنة، وإذا أنت ما أعطيتني الجنة أنت ظالم، وإذا أنت أعطيتني الجنة بفضلك ومنتك صاحب منة، والمنة تكدر النعمة!!

فهذا لا يقوله مخلوق مع خالق، ولا يقوله عبد مع سيد، هذا الكلام لا يقال لله -عز وجل-، ولذا قال: «فجعلوا تفضّله سبحانه وتعالى على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، وإعطائه ما يعطيه أجرةً على عمله، أحبّ إلى العبد من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتّة»، نسأل الله -عز وجل- يعطيه العافية.

هذا القول يناقض القول السابق، القول الأول، ولذا قال «وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منّة الصدقة عليه بلا ثمن، فجعلوا تفضّله سبحانه وتعالى على عبده» الكلام على التفضل «بمنزلة صدقة العبد على العبد»، صار بمنزلة صدقة العبد على العبد «وإعطائه ما يعطيه أجرةً على عمله، أحبّ إلى العبد من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل»، يحسب ويحب أن يكون عمله هو ثمن الجنة، وليس هو منة من الله -عز وجل-، «ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء ألبتّة»، الأعمال هي الثمن، فثمن الدخول هو الأعمال.

قال «والطائفتان منحرفتان عن الصّراط المستقيم»، أي طائفتين؟ الطائفة التي قالت إن الإنسان المكلف جبر على الأعمال، وليس له فيها إرادة! وهذا انحراف، والطائفة الثانية التي قالت: إن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله!!

فهذان قولان متناقضان، «والطائفتان منحرفتان عن الصّراط المستقيم، وهو» و«هو» تعود على إيش؟ على الصراط المستقيم، فالصراط المستقيم هو قول أهل السنة وهو القول الحق أن الأعمال أسباب ليست ثمنا، فالأعمال أسباب موصلة إلى الثواب.

القدرية النفاة ما جعلوا الأعمال أسبابًا ولا لها تأثير، قالوا: الأعمال ليست لها تأثير، وليست لله فضل!! فيقولون: أعمالي ثمن دخول الجنة، أعمالي ما لها سبب، إنما هي ثمن.

قال في بيان منهج الحق: «أن الأعمال أسباب» هذا قول أهل السنة، قول أهل الصراط المستقيم: «أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب، والأعمال الصّالحات من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه، بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه وتعالى»، في سنن أبي داود يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم».

كيف لنا أن نشكر نعم ربنا، ونحن لا نستطيع أن نردها؟ {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا}، أنت متى تشعر بالنعمة؟ عندما تفقدها، لذا قالوا: النعمة (ومنها الصحة) تاج على رؤوس المرضى، فلما يمرض الإنسان يعرف النعمة، أنتم تنعمون بالسمع، فمن يشكو من سمعه هو الذي يشعر بالنعمة التي تنعمون بها، تنعمون بالبصر، والأعمى هو الذي يشعر بنعمة البصر، أما وأنت مبصر لا تشعر، فاذا كنا لا نستطيع أن نعد نعم الله -سبحانه وتعالى- علينا، فأنى لنا أن نشكرها؟! نحن ظالمون لأنفسنا، {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}، ظلوم على وجه المبالغة، وكفار على وجه المبالغة، كفار للنعمة، الإنسان ظلوم، ظالم لنفسه، فليس لك وأنت تخاطب ربك ليس لك إلا أن تقول: يا الله رحمتك، يا رب حنانيك، يا ربنا أدخلنا جنتك، يا ربنا أدخلنا جنتك بفضلك وكرمك، لا بأعمالنا.

طيب، النعمة التي أنت تشكر الله عليها، أن يلهمك ربك، بأن تشكر نعمته عليك، هذه نعمة، فكيف تكاد تشكر النعمة؟ شكرك للنعمة نعمة، الله يلهمك أن تشكر نعمته عليك هذه نعمة، فأنى لك أن تشكر نعم الله -عز وجل-، فنعم الله -عز وجل- لا تحصى، والعباد لا يستطيعون ألبتة، أن يقوموا بشكر الله -عز وجل- على نعمه، لذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في سجوده في دعائه: «اللهم أني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، النبي يقول: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، الثناء تكرار الحب، تكرار الفضل، الحمد والفضل إن كررته مرة تلو المرة تلو المرة، يصبح هذا الحمد ثناء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، هذا حال النبي -صلى الله عليه وسلم-، الذي كان يقوم الليل ونصفه أو ثلثه، فكيف لنا أن نخاطب ربنا ونقول له: واجب عليك أن تدخلنا جنتك، وأنت يا الله أوجدتنا وأكرمتنا وتفضلت علينا، وعرفتنا بك، فهذا الكلام عقلي محض، وتنظير لا صلة له بالعمل، بل هو في الخيال ليس له صلة بواقع الإنسان الذي سمي إنسانا لكثرة النسيان، الإنسان سمي إنسانا إما لحركته، وإما لكثرة نسيانه، ولذا قالوا: وأول ناس من الناس أول الناس، مَن أول الناس؟ آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فالله -عز وجل- لا يعطينا الجنة على أننا مستحقون لها، وإنما الله يعطينا الجنة من كرمه وفضله، والله يعطينا الجنة شكرا لأعمالنا؛ لأنه شكور.

قد ذكر الله -عز وجل- هذا: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}، الله يشكر لنا صنيعنا ليس واجبا عليه، إنما الله يعطينا الجنة: {وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}، فالله يشكر لنا سعينا، وليس واجبا عليه، وليست الجنة ثمنا لعملي.

أما القول بأنها ثمن، فكمن دخل الحديقة، وأخذ تذكرة وقال: أنا اشتريت الحديقة، فمن حماقته ذلك، فإن هذه التذكرة سبب لدخوله في الحديقة في الحقيقة، وما أصبح يتملكها، وإنما المالك لها صاحبها، وفي الجنة، من الذي يملك الجنة؟ الله جل في علاه، والله يشكر، شكر لك عملك، وقبل منك تفضلا منه ورحمة، وأولا وأخيرا الله -جل في علاه- يعامل الناس ليس فقط بصورة أعمالهم، والله ينظر إلى قلوبهم، الله ينظر إلى القلوب ويعامل الناس على حسب ما في القلوب.

حقيقةً استوفى المصنف شبهة أهل هذا القول، وبعد استيفائه لشبهة أقوالهم، رجع فكر عليه، بالتوضيح والبيان والتفصيل، وبيان عوار هذا القول وفساده.

الآن بدأ التفصيل بعد العرض، وقال المصنف -رحمه الله-: «وتأمّل قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: "لن يدخل أحدٌ نكم الجنّة بعمله" تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنّة بالأعمال، ولا تنافي بينهما، لأن توارد النّفي والإثبات ليس على محلٍ واحدٍ، فالمنفي باء الثمنيّة واستحقاق الجنّة بمجرّد الأعمال، ردًّا على القدريّة المجوسيّة التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكدير المنّة، والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيّة، ردًّا على القدريّة الجبريّة الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة.

والسنّة النبويّة هي: أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها.

وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعا من الحق فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا، فهدى الله أهل السنّة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه».

الإشكال في الظاهر، لا يوجد في الشريعة بين الكتاب وصحيح السنة تعارض، ولا تناقض، وكان إمام الأئمة أبو بكر ابن خزيمة ينادي في دروسه يقول: لا يوجد في الشريعة تعارض، ومن كان عنده تعارض فليأتني به، فأنا أحله.

فرفع التعارض لمن؟ للعلماء، العلماء الذين يعرفون مراد الله ومراد نبيه -صلى الله عليه وسلم- مراد رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فان عرفنا حقيقة المراد؛ حينئذ ينتفي التعارض، وأنتم طلبة علم انتبهوا الآن إلى بعض الأشياء، هنالك فرق بين التعارض والتناقض. أما التناقض من كل وجه، فهذا أمر مستحيل في الشريعة، أما التعارض، فمن وجه دون وجه، فالتعارض موجود، وأغلب التعارض في الشريعة، يوجد في الشريعة نفسها نصوص موضحة ترفع هذا التعارض، ولذا الشنقيطي محمد الأمين -رحمه الله- المفسر الكبير صاحب «أضواء البيان»، برهن على هذه الحقيقة بتأليف كتاب سماه «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب»، والكتاب مطبوع، وألفه دون أي مرجع، مسودة المؤلف، ما كان عنده كتب، قال: اعتكفت في المسجد النبوي في شهر رمضان بطوله، وعنَّ لي أن أكتب دفع إيهام الاضطراب، وأنا في المعتكف، وقرأ القرآن ووجد في القرآن -إياك أن تقول تناقض، تقول: تعارض- ثم أتى بآية أو بحديث يرفع التعارض، مثلا قال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} نص صريح في أننا نرى ربنا، ثم وجد في القرآن أيضا: {لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} نفي الرؤية أعوذ بالله! الآية لا تدل على نفي الرؤية، تدل على أثبات الرؤية، لكن لا نستطيع أن ندرك ربنا، العقول لا تدرك ربنا، ثم ذكر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين: «سترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون هذا القمر»، أنا وإياك نرى القمر، صحيح؟ هل برؤيتنا للقمر ندرك القمر ومهيته، ونعرف كنهه ومادته؟ لا نعرف، فقال قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «كما ترون هذا القمر» هو توفيق بين قول الله تعالى: {وُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، وقوله –سبحانه وتعالى–: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}، قال: كل شيء في الشريعة فيه تعارض ويظهر منه التعارض، يوجد في الشريعة نص يجمع بين الأمرين، فقوله: «كما ترون هذا القمر» هو جمع بين الآيتين، وهاتان الآيتان في ظاهرهما تعارض، ولكن ليس فيهما تناقض، لأن التعارض يكون أحياناً كما هنا في الحديث الذي معنا، تكون الآية على محل، والحديث على محل آخر، فإذا أثبت شيئا باعتبار معين، ثم نفيت هذا الشيء باعتبار آخر غير الأول، فهذا الإثبات والنفي ليس فيه تعارض.

مثلا أخونا، إسلام، واحد قال: إسلام ليس بطبيب، ولكنه مهندس، هل بينهما تعارض؟ ليس بينهما تعارض، لكن واحد يقول: إسلام طبيب وليس بطبيب، هذا تناقض، هذا ليس تعارض، هذا تناقض، أثبت أنه طبيب، ثم نفيت أنه طبيب، فالإثبات والنفي في محل واحد، إما إذا كان الإثبات في محل، والنفي في محل آخر فهذا أمر مستساغ.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: «وتأمّل قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} مع قوله –صلى الله عليه وسلم–: "لن يدخل أحدٌ، منكم الجنّة بعمله" تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنّة بالأعمال».

الشيخ –حفظه الله–: قلنا الإثبات والنفي هذا تعارض، وهذا التعارض يحدث في الظاهر، طيب إيش يقول؟ «لا تنافي بينهما»، لماذا؟ يقول «لأن توارد النّفي والإثبات ليس على محلٍ واحدٍ، فالمنفي باء الثمنيّة واستحقاق الجنّة بمجرّد الأعمال»، إذا توارد النفي والإثبات على محلين مختلفين، حتى نقرب المعنى كما لو أننا قلنا: إسلام ليس بطبيب، ولكنه مهندس، فالإثبات على شيء، والنفي على شيء، طيب: {وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون}، {بما} الباء ليست ثمنية، الأعمال سبب لدخول الجنة، وليست ثمنا لدخول الجنة، والحديث: «لن يدخل أحد منكم

الجنة بعمله» هذه الباء باء الثمنية، لن يدخل أحدكم الجنة وعمله ثمن لدخول الجنة، وعمله هو استحقاق حتم لازم لدخوله الجنة!! وليس الأمر كذلك.

والحديث لا ينافي الآية، والحديث فيه إثبات والآية فيها إثبات، والإثبات على محل والنفي على محل، ولا تعارض بينهما، بدليل أن للحديث تتمة قال: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يدفع لوم عائشة، لما تشكوه طول القيام فيقول لها: «أفلا أكون عبدا شكورا؟» لما تراه يقوم ويقوم حتى تتفطر قدماه، من طول القيام، تتشقق شقت قدمه، وقيام الليل كان واجبا على النبي -صلى الله عليه وسلم- بخلاف سائر الناس، ومات والقيام واجب على النبي -صلى الله عليه وسلم- قيام الليل، فهذا من خصائصه -صلى الله عليه وسلم-، وكان يقوم نصف الليل، ليست ليلة، يقوم حتى تتشقق قدمه، فتقول له عائشة.... انتبه إلى عقيدة عائشة في هذه المسألة، انتبه إلى أن عقيدتها أن دخول الجنة إنما هو فضل من الله ورحمة، فتقول له: ألم يغفر لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر، هذا المعتقد الصحيح، وليس المعتقد أن تقوم للجنة، ويكون عملك ثمنا للجنة؟ ما كانت تعتقد عائشة هكذا، يرد على هؤلاء، تقول يقول -صلى الله عليه وسلم-: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» فقالوا له: ولا أنت يا رسول الله؟ فماذا كان جواب النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ وهو أكثر الناس أدبا مع الله وأعرفهم به -سبحانه وتعالى-، قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

يا ربنا! يا ربنا تغمدنا برحمتك، وتغمدنا بفضلك ونحن ضعفاء جهال، ظالمو أنفسنا، يا ربنا تعاهدنا بفضلك ورحمتك.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الجنة ليست حتما لازما، مقابل العبادة، وإنما دخول الجنة إنما هو فضل من الله -عز وجل- ورحمة، فالباء في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» يسميها علماء اللغة باء الثمنية، الجنة ليست ثمنا للأعمال، والباء في قوله -سبحانه وتعالى-: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} إنما هي باء سببية، فكان النفي في محل، والإثبات في محل، وحتى يتضح الأمر كما قلنا: إسلام ليس بطبيب، ولكنه مهندس، فهذا ليس فيه تعارض، لكن ما قلنا: إسلام ليس بطبيب وهو طبيب، فلو كانت الباء في الموطنين في الآية والحديث سببيتين، لكان كقولنا: إسلام ليس بطبيب وطبيب، لكن المثبت شيء والمنفي شيء آخر، وهذا هو رفع للتعارض، فقوله -صلى الله عليه وسلم- في آخر الحديث: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، هذه الجملة التفصيلية الواضحة البينة هي سبب لرفع الإشكال بين الآية والحديث، وكذلك بين الأحاديث الأخرى كقوله سبحانه: {جَزَاءً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: «لأن توارد النّفي والإثبات ليس على محلٍ واحدٍ، فالمنفي باء الثمنيّة واستحقاق الجنّة بمجرّد الأعمال».

الشيخ -حفظه الله-: إذًا المنة عندهم تكدير للمعروف والنعمة، ولا شك أن سبب هذا القول إنما هو قياس الخالق على المخلوق، وهذا القياس من أبطل أنواع القياس، وليس بصحيح.

قول المصنف -رحمه الله-: «والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيّة»، إذًا الباء مختلفة في الموضعين، باء ثمنية، وباء سببية ثمنية، وهذا هو التوفيق بين الحديث والآية، وهذا يقرر أن الأعمال سبب، ليس على قول المذهب الأول أنه الإنسان ما له أعمال، وليس له قدرة، فهذا

رد على المذهب الأول، بأن الأعمال أسباب، والقول بأن الأعمال ليست ثمنًا، هو رد على المذهب الثاني.

فالقول الأول فيه حق وفيه باطل، والقول الثاني فيه حق وفيه باطل، وأهل السنة أخذوا الحق خالصًا بين القول الأول والثاني.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: «والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببيّة، ردًّا على القدريّة الجبريّة الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة».

الشيخ -حفظه الله-: إذًا غاية الأعمال عند الفريق الأول، وهذا فصلناه في الدرس الماضي، أنها علامة على شيء، وليست سببا؛ لأنهم لا يقولون بالأسباب، ولذا قالوا: إن العبادات ليست حكما ولا عللا، هم نفاة، يقولون: الله جل في علاه هو الذي يفعل كل شيء، والإنسان ليس له شيء بالكلية.

قال المصنف -رحمه الله-: «والسنّة النبويّة هي: أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها»، إذًا عموم قدرة الله لا تعارض بينها وبين الأسباب والمسببات، وأن الله -عز وجل- قدر الأشياء، وجعل لها قانونا تسير عليه.

الآن أرجو الله تعالى أن تكونوا قد فهمتم عليَّ أقرأ لكم كلاما من الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» في موضوع التحسين والتقبيح، وسبق أن ذكرت أن الأصل في النقل والعقل، أنهما متوائمان، وليسا متقابلين، فلا تعارض بينهما، فالعقل الصريح لا يناقض النص الصحيح، وإذا وُجد تعارض فإنما التعارض يكون فيما يبدو لك، عقل صريح مع نقل صحيح لا يتعارضان أبدا.

جعل المباينة الكاملة بين الأسباب والمسببات، أو الاعتماد الكامل على الأسباب والمسببات، هذا خطأ وهذا خطأ، تأمل معي كلام الإمام ابن القيم حتى يتجلى بوضوح لنا موضوع التحسين والتقبيح، هل هما للسمع أم للعقل؟ اربطوا الآن الكلام أومأت في درس الماضي إلى حقيقة، والآن أكمل الحقيقة التي تقابلها، الحقيقة الأولى في الدرس الماضي قلنا: إن الحسن والقبح يعرف من أين؟ من الشرع، لأن الإنسان لا شيء، في درس اليوم: الإنسان هو كل شيء، الله ليس خالقًا، هذا كفر والعياذ بالله، الله أنا خالقها، هذا والعياذ بالله.

فعلى القول هذا، التحسين التقبيح لمن؟ العقل.

الصواب للعقل والنقل، لكن ببعض محترزات وبعض تفصيلات، فهذا قول وسط بين طائفتين، وهو قصد للطريق الجائر، قال الإمام ابن القيم: «ما منكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل، ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه، ونبطل ما معه من الباطل ونرده عليه، فنجعل حق الطائفتين مذهبًا ثالثا، يخرج من بين فرث ودمٍ لبنا خالصا سائغا للشاربين، وحاصل هذا القول أن الحسن والقبح يدركان بالعقل، ومن الذي يقدر أن هذا حسن أو قبيح؟ الشرع، أن الحسن والقبح يدركان بالعقل ولكن ذلك لا يستلزم حكما فعل العبد، بل يكون الفعل صالحًا لاستحقاق الأمر والنهي والثواب والعقاب من الحكيم، الذي لا يأمر بنقيض ما أدرك العقل حسنه، الله لا يأمر إلا بما أدرك العقل حسنه، أو ينهى عن نقيض ما أدرك العقل قبحه، لأن ما أدرك العقل حسنه أو قبحه راجح، ونقيضه مرجوح، بمعنى أن صفة الحسن في الفعل ترجح جانب الأمر على جانب الأمر بنقيضه القبيح، وصفة القبح في الفعل ترجح جانب النهي عنه، على جانب النهي عن نقيضه الحسن، عملا في ذلك بمقتضى الحكمة، التي هي صفة من صفات الله تعالى، فلا حكم إلا من الخطاب الشرعي، والعقل يدرك حسن هذا الخطاب، ويدرك قبح ذاك النهي.

فجعل الأمرين متعارضين ليس هذا بحق، وليس بصواب.

ومن البديع أيضا وأشار إلى أن القول بإدراك العقل للمصالح والمفاسد، لا يعني أن العقل يدرك ذلك إدراكا تامًا مطلقًا، فقول: بل غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى به الشرع، والشرع يأتي بالتفصيل قبحًا وحسنًا، فالعقل يدرك ذلك جملة، ويأتي الشرع بتفصيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما الكون هذا الفعل المعين عدلا أو ظلما، فالعقل لا يعجز عن إدراك ذلك في كل فعل وعقل من العقول، اعرض بعض العقول على بعض، العقول منهم من يستقبح، ومنهم من يستحسن، فالعقل لا يدرك القبح بالتفصيل في كل شيء، والشرع لا يأتي إلا بما فيه حسن ولكن إن جاء في الشرع الحسن أو جاء في الشرع القبح، فسرعان ما يدرك العقل، فالعقل ليس معارضا للشرع، فان بدا لك تعارض اتهم عقلك، واتبع أمر ربك.

وتذكروا ما نصحتكم به ولا أدري هل فعلتم أم لا، وإن شاء الله فعلتم أو بعضكم فعل، نصيحتي أن تقرأوا «مختصر الصواعق المرسلة»، للإمام ابن القيم في الجزء الثاني، صفحة ست مئة وتسعين، إلى سبع مئة، عشر ورقات، ذكر فيها جميع الفرق التي ظهرت في تاريخ الأمة الإسلامية ورد أنَّ جميع الفرق الضالة التي ظهرت في تاريخ الأمة مردها إلى أنهم قدموا العقل على النقل، لما قدموا العقل على النقل حينئذ تبدأ الفرق، كل الفرق بلا استثناء، سواء الفرق الضالة الخارجة من الملة بالكلية، أو الفرق الضالة المبتدئة، التي هي تحت اسم الإسلام، كلها الجامع بينها أنها تقدم العقل على النقل، ولذا قال الشاعر:

علم العليم وعقل العاقل اختلفا

من ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا

فالعلم قال أنا أحرزت غايته

والعقل قال أنا الرحمن بي عرفا

فأفصح العلم إفصاحا وقال له

بأينا الله في فرقانه اتصفا

فبان للعقل أن العلم سيده

فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

الله لما وصف نفسه وصف نفسه بأنه عليم، ولم يصف نفسه بأنه عاقل، الله لما وصف نفسه لما وصف نفسه وصف نفسه بأنه عليم.

فقبل العقل رأس العلم، إذًا الفضل لمن؟ الفضل للعلم، الفضل للعلم وليس الفضل للعقل، فدائما العلم والنقل مقدم على العقل، والعقل يدرك محاسن الشرع، والذي يقرر أن هذا حسن أو قبيح إنما هو الشرع.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: «**وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعا من الحق فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا، فهدى الله أهل السنّة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**».

الشيخ –حفظه الله–: إذًا الجبرية عندهم حق، قالوا: إن لله مشيئة، وله قدرة، وله إرادة، ولكن قولهم هذا لا يعني أن العبد ليس له مشيئة، وليس له إرادة، فنأخذ أن الله عنده حق منه، والقدرية أصحاب القول الثاني، قالوا: العبد له إرادة ومشيئة، فهذا حق نأخذه من القول الأول، والحق

من القول الثاني، ولكن هذه إرادة تكون مستقلة عن إرادة الله -عز وجل- هذا من أبطل الباطل، فلو أخذنا الحق من الفرقة الأولى الجبرية بإثبات أن الله له إرادة ومشيئة، وأخذنا الحق من الفرقة الثانية القدرية، أن للإنسان قدرة، فركبنا قولا فيكون هذا هو مذهب الصواب، ومذهب أهل السنة إذا استثنينا مذهب الفلاسفة، ومذهب غلاة الصوفية، وغلاة الصوفية يقولون: نحن نعبد الله تعالى، ولا نطمع في جنة، ولا نطمع في نار، ومَن يعبد الله بالمحبة فقط يتجرأ عليه، كاليهود، اليهود قالوا: (الله إذا أدخلنا النار، فهي أيام معدودات)!، قاتلهم الله، حتى في النار يحددون كيف الله -عز وجل- سيعذبهم في النار!!

مثلا: امرأة يعني لها من الجمال ما ليس لغيرها، ولها محبة عند زوجها شديدة، تتجرأ عليه، تخالف أمره، لماذا تخالف أمره؟ لأن زوجها مفتون بجمالها، فجمالها يشفع لها كل مخالفة، فبعض الناس يعتقد أنه أنا بعبد الله بالمحبة، ومحبتي لله تشفع لي في كل شيء، أفعل ما أريد، أترك المأمورات، وأفعل المنهيات!!

لذا قالوا قديمًا: الأصل في الإنسان عندما يعبد الله -عز وجل- كما هو قول أهل السنة والجماعة، يعبد الله بمحبة وبخوف وبرجاء، انتبهوا الآن إلى أنواع العبادة المفردة، تعبد الله بشيء، إذا ترك شيئا من الأشياء الثلاثة، قالوا: من عبد الله بالمحبة فقط تزندق، ومن عبد الله بالرجاء فقط مرجئ، يقول: إيمانك كإيمان جبريل، ولا تضرني معصية مع الإيمان، أفعل أكبر الكبائر، وإيماني كامل.

قالوا: من عبد الله بالمحبة تزندق، ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ، ومن عبد الله بالخوف فهو حروري.

حروري يعني خارجي، الخارجي لا يعرف إلا الخوف، لا ينتبه للرجاء.

السني يعبد الله بالمحبة، ويعبد الله بالخوف، ويعبد الله بالرجاء، بالثلاثة جميعا.

فهناك فرقة يعبدون الله -عز وجل- بتهذيب النفوس، وبأن في الإنسان قوى، وهذه القوى نفسية، تنسب إلى أنها سبعية، نسبة للسباع، وإلى البهيمية نسبة للبهائم، فقالوا: هذه القوى النفسية لابد أن نهذبها، فنحن نحتاج للعبادة ونعبد الله تعالى حتى نهذبها بهذه الأمور، وهذا هو رأي الفلاسفة، قالوا: نحن لا نعبد الله -عز وجل- لأن الله سيدخلنا الجنة! يعبدون الله مع عدم اعتقادهم باليوم الآخر، فلماذا يعبد الله؟ قالوا: نحن نحتاج لتهذيب نفوسنا السبعية، والقوى التي عندنا البهيمية الشهوانية، فهذا فريق ثالث، ثم الفريق الرابع.

وهذا الفريق الثالث هو نصيب كلامنا إن شاء الله تعالى في درسنا القادم، هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.